الفصل الخامس

صورة المستقبل

بعد حديث طويل عن دور التعليم فى هندسة المستقبل نطلق الآن من الخلفية العلمية السابقة إلى محاولة لإستشراف أرحب لصورة المستقبل .

ورغم أهمية وفائدة التعرض لإجتهادات الفكر المستقبلى فى المجتمعات الغربية إلا أن هذه المقالات فى مجملها تهدف إلى تقديم ملامح عن «صورة المستقبل» التى يمكن أن نتحاور حولها ، بل والتى يمكن أن يعرف منها «الآخر» كيف تبدو من زاويتنا نحن ، وهذا يؤكد الرغبة فى المشاركة فى صنع مستقبل واحد لكل البشر . وتبدأ من هذا الفصل أيضاً محاولة الجمع (وليس التوفيق) بين الموضوعية والإنتماء .. وهى محاولة أعتبر النجاح فيها «ضرورة المستقبلية» .. إذا «ما أخترنا» الحفاظ على هويتنا .

١ ـ التسعينات ومابعدها

٢ ـ المستقبل العربى : التحدى والإستجابة

٣ ـ الآخرون هم الواقع

٤ ـ عروبة المستقبل

٥ ـ موسم الهجرة إلى الجنوب

obeikandl.com

١ - صورة المستقبل: التسعينات وما بعدها!!

كلما تعرضت لموضوع التغير المتسارع الذى يشهده عالم اليوم، تذكرت عبارة تقول «أن آدم قال لحواء : إننا مقبلان الآن على مرحلة إنتقالية» ومنذ تلك اللحظة والبشرية لم تتوقف عن الأنتقال من مرحلة إنتقالية إلى أخرى!! لكن المشكلة ليست فى التغير المستمر، وإنما فى معدله المتزايد، الذى نحدثه بأيدينا ومع ذلك لا نكاد نلحق آثاره وتراكماته المتلاحقة. ولعل تاريخ البشرية فى القرن الميلادى العشرين أفضل دليل على ذلك. بل إن السنوات الأخيرة لعقده قبل الأخير تحاول رسم ملامح عالم جديد تماماً، وهو العالم الذى ستدخل به البشرية القرن الحادى والعشرين، الذى يبدأ فى «أول يناير عام ٢٠٠١»، وإن كان البعض يستعجل بدايته ويريد أن يحرم القرن العشرين من عامه الأخير - عام ٢٠٠٠ - ويؤكد أنه بداية القرن الجديد، تمشياً مع مناخ السرعة ومسابقة الزمن.

وما كان لعقد التسعينات أن يلعب هذا الدور الحاسم فى «تاريخ المستقبل» فجأة، إنما تم ذلك كمحصلة للإنفجارات المتتالية، التى ألحقت

«بتاريخ الماضى» وأعمدته الأساسية الكثير من الشروخ والتصدعات، لقد حدث ذلك منذ الحرب العالمية الثانية، وبالذات فى النصف الثانى من القرن العشرين، وفى إشارات تلغرافية سريعة، يمكن أن نرصد أهم ما حدث فى هذه الفترة: الانتقال من الأستعمار إلى الأمبريالية ومن القطبية إلى الهيمنة، إنتصار حركات التحرر ومواجهتها أزمات تنموية تكاد تعصف باستقلالها، إزدهار وإنحسار الأيديولوچيات، إدانة وإنهيار شمولية النظم والخضوع لشمولية السوق العالمية وشركاتها عابرة اقوميات، تراكم أسلحة الدمار وظهور التوازن النووى وغزو الفضاء، الوعى بالاثار الخطيرة للتلوث الذى لا يعرف الحدود ولاستنفاذ الموارد الطبيعية بطريقة خاطئة، تغيير العلاقة بالزمان والمكان نتيجة ثورة الإتصالات، زيادة مذهلة فى القدرة على تخزين وإسترجاع المعلومات، التوصل إلى إحتمالات هائلة للقدرة على هندسة الكائنات وتوليف أشكال جديدة لم نعرفها من قبل، وكذلك التوصل إلى مواد جديدة ذات خصائص فائقة، لقد عاش ويعيش فى هذه الفترة أكثر من ٩٠٪ من العلماء الذين عرفتهم البشرية فى تاريخها الطويل وكانت إنجازاتهم وراء هذا السيل المنهمر من التغيرات بإيجابياتها وسلبياتها، وذلك تبعاً لكفاءة توظيفها المجتمعى، ولعل هذا يفسر تعالى صيحات الأهتمام بالجانب الأخلاقى والبعد الإنسانى لهذا التوظيف. لقد أدى كل ذلك إلى تضاؤل دور الثورات السياسية والأيديولوجية فى كتابة التاريخ كما كان يحدث

فى الماضى، وبات واضحاً - كما يذكر هوج ستيورات (١٩٨٩) - أن «تاريخ المستقبل» سيكتب بواسطة ثورة التكنولوچيا والاقتصاد والمجتمع، وهى ثورة يمكن أن تكون سليمة إذا إستمر مناخ تفضيل «أيديولوچيات البقاء». ونبذ الصراع من أجل «بقاء الأيديولوچيات».

إن ثورة التكنولوچيا والاقتصاد والمجتمع، التى يشير إليها ستيوارت فى دراسة عن الأعمال والتكنولوچيا والأبتكار فى العقود الثلاثة القادمة، التى أسماها «تذكر المستقبل»، تجعلنا نعود إلى الوراء لأكثر من عقدين لنسترجع الرؤية الثاقبة التى قدمها أندريه بوفر فى كتابه عن «بناء المستقبل» حيث يقول: «إن الإنسان هو لعبة القدر ومحركه فى الوقت ذاته، ومن هذا الموقع المتوسط يقوم بدور خلاق لا جدال فيه. وكلما كانت رؤيته واسعة وشاملة، وكانت نظراته المستقبلية المرسومة ضمن إطار إمكانات التطور بعيدة، كان أثره على التاريخ عميقاً. فالعمل الذى ينظم المستقبل - بالتنبؤ بالأوضاع الناجمة عن الأسباب العلمية والاقتصادية والاجتماعية - ليس عملاً خيالياً طوباوياً، ولكنه يخضع فى الغالب لشروط قاسية ينبغى تقديرها بصورة صحيحة». وعلى ذلك، فالتقدير السليم يعتمد إلى أقصى الحدود على فهمنا لما أسماه جون نيسبت «بالتوجهات العظمى»، التى ذكرها فى كتاب صدر عام ١٩٨٢ تحت هذا الإسم، وهى فى رأيه التوجهات التى ستكون حياتنا فى المستقبل. هذه التوجهات العظمى تستحق منا وقفة قصيرة.

• يتحدث نيسبت بالدرجة الأولى عن أمريكا، ويطرح التخوف من «استنساخ» النموذج الأمريكى ومحاولة تكراره فى كل مكان. ومع ذلك فباعتبار الولايات المتحدة الأمريكية أكثر المجتمعات تقدما وإبتكاراً، فمن المنطقى الاطلاع على ما تراه من موقعها المتقدم على أساس تراكم آثار المنجزات العلمية والتكنولوچية والتغيرات الاقتصادية والمجتمعية. يقول نيسبت: أن إنسان اليوم يعيش بين قوسين: الماضى القريب والمستقبل الأقرب، قدم هنا وقدم هناك. وقبل زن ينقل القدم الموجودة فى الماضى، عليه أن يدرك توجهات المستقبل، لأن التوجهات فى رأيه - مثل الخيل، يسهل إمتطاؤها وهى فى الاتجاه الذى تسير فيه فعلاً. فما هى هذه التوجهات العظمى؟ يحدد نسيبت عشرة توجهات هى*:

- التحول من المجتمع الصناعى إلى مجتمع المعلوماتية.

- الانتقال من الانقياد للتكنولوجيا إلى الإستجابة الإنسانية الموازية لتطور التكنولوچيات المتقدمة.

* فى عام ١٩٩٠ أصدر نيسبت «التوجهات العظمى ٢٠٠٠ - Megatrends 2000»، الذى أكد فيه إستمرارية التوجهات العشرة المذكورة كجزء من صورة المستقبل، وإن إقتراح لعقد التسعينات التوجهات العشرة الآتية، بإعتبارها من أهم العوامل التى ستشكل صورتها: الإزدهار الاقتصادى - النهضة الفنية - ظهور إشتراكية السوق الحرة - تزاوج نمط الحياة الكوكبى مع الثقافات القومية - التخصصية فى مجتمعات الرفاهية - نهضة فى دول الباسيفيك - عقد القيادات النسائية - عصر البيولوجيا - الإحياء الدينى للألفية الجديدة - إنتصار «الفرد».

- الانتقال من خطط وإعتبارات المدى القصير إلى إستشراف المدى الطويل.

- الانتقال من النظرة الضيقة للاقتصاد القومى إلى النظرة الشاملة للاقتصاد العالمى.

- التحول من المركزية إلى اللامركزية.

- تزايد الاعتماد على الذات فى مقابل الاعتماد على المؤسسات.

- التحول من ديمقراطية الأنابة إلى ديمقراطية المشاركة.

- التحول من النظام الهرمى إلى النظام الشبكى، الذى يناسب عصر اللامركزية والمعلومات.

- الانتقال من المناطق الصناعية القديمة إلى مجتمعات جديدة.

- التحول من مجتمع الخيارات المحدودة (هذا أو ذاك) إلى الخيارات العديدة.

هذا التحول المجتمعى الكبير، الذى تقف وراءه الثورة العلمية والتكنولوجية، بآثارها الاقتصادية والسياسية الهائلة، يحتاج إلى قدر كبير من التكيف والاستيعاب، حتى لا نتعرض لما أسماه الفين توفلر «صدمة المستقبل». هذا التكيف والاستيعاب سيكون أصعب منالاً على من يعيشون متخلفين عن حاضر الدول المتقدمة، بل وعن ماضيها بدرجة

تدعو للإنزعاج. ويساعد الإنسان على التكيف أن يقوم بالتنبؤ العلمى، الذى يحاول تقديم صورة موضوعية للمنجزات المتوقعة فى فترة زمنية محددة، لنناقش فى ضوئها أفضل سبل توظيف هذه المنجزات لخير البشرية، التى تتداعى الحواجز بين عشائرها وأممها يوماً بعد يوم وتحضرنى هنا فكرة «آلة الزمان»، التى تصور مؤلفها قدرتها على التنقل بحرية بين الماضى والمستقبل، بحيث تستطيع تتبع أحداث الماضى الذى أفرز اللحظة الحاضرة، التى لا تستقر كثيراً بسبب سرعة التغيير، وتقودنا إلى المستقبل والمستقبل يجب أن يحظى بكل الاهتمام، لأنه - كما يقال - هو الذى سنقضى فيه بقية أعمارنا!!!

• لقد جرت محاولات كثيرة لتطبيق مفهوم آله الزمان لتقديم «صورة المستقبل»، ودور التقدم العلمى والتقنى فى رسم ملامحها، ولضرورة الانتقاء سأحاول إلقاء نظرة طائر على محاولة أعجبتنى بشكل خاص، قام بها كاتب المستقبليات والخيال العلمى المعروف آرثر كلارك (١٩٨٦)، وأسماها: ٢٠ يوليو ٢٠١٩ - يوم فى حياة القرن الحادى والعشرين!!! عاد كلارك إلى اليوم الذى شهد لحظة نزول أول إنسان على سطح القمر (٢٠ يوليو ١٩٦٩)، ومضى يتتبع مع عدد كبير من المتخصصين ،ما تم إنجازه فى قرابة العقدين، مع تقديم التنبؤات الموضوعية لما يمكن أن ينجز فى العقود الثلاثة القادمة، وتصور آثار هذه المنجزات على مختلف مجالات النشاط البشرى عبر هذه الفترة، وصولاً إلى يوم إحتفالنا بمرور

خمسين عاماً على زيارتنا القمرية الأولى، التى ستحل ذاكرها فى ٢٠ يوليو ٢٠١٩ *. ترجع موضوعية الصورة التى قدمها المحرر وشركاؤه إلى أن «البذور الجنينية» لكل تنبؤاتهم موجودة بشكل علمى مؤكد. لقد زاوج كلارك بين المتحقق والمتوقع وقدم عرضاً حيوياً لحياة إنسان المستقبل، منذ لحظة الميلاد الذى يمكن أن ينتج عن عديد من الطرق الاصطناعية، إلى لحظة الوفاة التى قد يضع بنفسه اللمسات الأخيرة للإحتفال بها. ودعونا نقدم لقطات سريعة من هذا العرض.

• فى مجال الصحة ستتم متابعة الفرد منذ تكون خليته الجنينية الأولى بالطرق الطبيعية أو الصناعية، وخلال فترة الحمل (الذى يمكن أن يمارسه الذكور)، حتى لحظة الميلاد، وبدلاً من شهادة الميلاد سيسجل لكل فرد «شهادة حياة»، تتضمن تحليل إمكاناته الوراثية، والأمراض التى قد يتعرض لها طبقاً لهذه الإمكانات، مع ذكر المهن غير الملائمة صحياً، وحتى التقدير التقريبى للعمر إذا لم يتعرض للأمراض والحوادث!! وبالنسبة للتشخيص والعلاج سيلعب الكمبيوتر والإنسان الآلى «الروبوت» دوراً متزايداً. وستعالج الهندسة الوراثية الكثير من الأمراض المستعصية، وستتم غالبية العمليات خارج المستشفى، وستصير الأخيرة - أو صارت فعلاً - أقرب إلى الفندق، وقد أعطاها اسماً مشتقاً من الكلمتين (مستندق Hostel!!). هذا بالأضافة إلى

* هناك الآن حنين جارف للقيام برحلة قمرية ثانية.

التقدم الكبير المتوقع فى مجال زراعة الأعضاء وقطع الغيار الحية، وكذلك الأجهزة التعويضية التى تستجيب لأوامر المخ بحساسية عالية.

أول ما سيميز التعليم هو إستمراريته وتنوعه طوال فترة حياة الفرد، والأستخدام الأقصى للمعلوماتية والاتصالات فيه، والتركيز على تعليم الفرد كيف يتعلم، أكثر من تعليمه مادة معينة. ولاشك أن اسطوانات الكمبيوتر الصغيرة، بما يمكن أن تحويه من معلومات تنوء بها أرفف المكتبات، ستغير تماماً من شكل الكتاب والمكتبة، وهذا أمر يحز فى نفس من لا يتصور «الحياة بدون كتاب»، لكنها سنة التطور الذى تبشر به كل «الكتب» التى تستحق أن تقرأ!!!

- أما تجربة الموت، فسيسبقها تأخير الشيخوخة عن طرق تقليل ومعالجة الأضرار التى تصيب مادة الوراثة فى خلايانا، وسيمارس المرء زراعة قطع غيار جديدة كلما إحتاج إلى ذلك .. وإذا لم يمت فجأة - فى حادث مثلاً - فستكون الوفاة أقل بشاعة، ولن يخلو الاحتفال بها من لمسات فنية كثيرة، يخطط لها «مرحوم المستقبل» بنفسه!!!

- يتوقع كلارك أن تجرى حرب المستقبل بين «الروبوت» حيث لن تراق فيها الدماء، ولكن «ستراق» فيها الدوائر الالكترونية والخلايا الضوئية لهذه «الروبوتات»، التى قد يكون بعضها أذكى منا كما تشير التوقعات، وبالتالى سيرفض الحرب وعموماً فإن كلارك متفائل أيضاً،

حيث يتوقع إختفاء الأمم المتحدة عندما نتحول من مفهوم «العالم قريتنا» إلى «العالم أسرتنا»**.

وبعد، لابد وأن نعترف بأن هذه السطور السابقة تعرضت في مجملها للمستقبل «بعيون غربية» وذلك لإهتمام الغرب الكبير بأدبيات المستقبل ودراساته.

وإذا ما نظرنا إلى ما جاء فيها «بعيون عربية إسلامية» فسنوافق على بعضه ونتحفظ على البعض الآخر أو نرفضه، دون أن يعنى ذلك تخلفنا عن الركب. ألم نتفق على أن الخيارات العديدة تعد من ضمن التوجهات العظمى للمستقبل؟

علينا أن نبدع فكرنا المستقبلى النابع من ثقافتنا، والذى يتواءم مع هذه التوجهات العظمى، ولكنه لا يتطابق مع الفكر المستقبلى لأصحاب الثقافات الأخرى. إن المستقبل للتكيف والتنوع فى ظل الاقتناع الكامل بحق الوجود المشترك، ففى ذلك ثراء للبشرية ولمستقبلها. بل إننى لا أبالغ إذا ما ذكرت أن البشرية فى حاجة إلى أن نكشف عناصر المستقبلية فى تراثنا الغنى، لنطعم بها المشروع الحضارى لإنسان الألفية الثالثة بعد الميلاد. إنه حق وواجب، فهل نضطلع به؟!! دعونا نضع هذا الأمر ضمن القائمة الطويلة لما يجب أن ننجزه فى التسعينات .. أعاننا الله.

** قد لا يدور الصراع المباشر بين الروبوتات، بقدر ما هو دائر فى مجالات الذكاء الاصطناعى من محاولات للتفوق والسبق والتنافس على الأسواق.

٢ - المستقبل العربى: التحدى والاستجابة

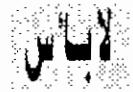

من أن نتحدث ليل نهار عن المتغيرات العالمية ورياح التغيير القوية، وإن كنت أخشى أن يكون كل نصيبنا هو «الحديث»، تاركين لغيرنا مسيرة التغيير و «التحديث»!! إن بعضنا يسطح الأمور بشكل مستفز، ويكاد لا يرفع عينيه عن عقارب الساعة منتظراً وصول رياح التغيير، ومتجاهلاً الفروق الموضوعية بين أوروبا والوطن العربى، وهى الفروق التى تجعل لكل منهما رياحه الملائمة القادرة على دفع سفن تقدمه وإزدهاره. ولا أبالغ إذا قلت أن لكل منهما أيضاً مصداته القوية، التى تنكسر عندها رياح كثيرة، وتفقد فعاليتها وقوة دفعها.

• لا شك أن الحديث عن أزمة التطبيق فى المعسكر الاشتراكى وضرورة إجراء التغييرات النظرية والعملية الملائمة للخروج من الأزمة ليس جديداً، لكن المثير للدهشة هو المعدل المذهل للسماح بإنهيار النظم القائمة، وإجراء ذلك بإشارة «فوقية» واضحة من جورباتشوف. إن التاريخ سيحسب له شجاعة الحسم بالنسبة للنقد الذاتى ودعم مسيرة

obeikandl.com

التغيير فى البلدان التى لم تستوعب قياداتها ضرورته، لكنه قد يحسب عليه «سيناريو الأنهيار» الذى تم به هذا التغيير، رغم أنه لم يكن هو السيناريو الوحيد الممكن. ولعل حرصه الاستراتيجى على اللحاق بالبيت الأوروبى قبل تثبيت شكل أوروبا ١٩٩٢ كان دافعاً لذلك، كما أن إرتياح الشريك الأمريكى فى سياسة الوفاق الكوكبية ليس مستغرباً، فالأنهيار يؤكد من ناحية «الفشل الكبير» للشيوعية تبعاً لتحليل بريجنسكى فى كتابه الأخير، ويجعل من ناحية أخرى خطط أوروبا ٩٢ أقل طموحاً، لأنها ستلتزم أدبياً وواقعياً بالمعاونة فى حل أزمة الأشقاء فى أوروبا الشرقية.

وإذا كان بريجنسكى قد عزا «الفشل الكبير» إلى قصور اليوتوبيا الشمولية، وأكد أن المستقبل للديمقراطية، فإن عدم الأستقرار على الصورة البديلة فى ظل التعامل مع الأحداث بمنطق الأنهيار بدلاً من منطق تصحيح المسار، قد أدى إلى ضبابية كثيفة من المرجح أن تنجلى عن موقف أكثر تواؤما مع متطلبات الأندماج فى السوق العالمية، الذى يمثل الشمولية الجديدة التى ورثت شمولية النظم والذى يبنى على الطفرة التكنولوجية لمجتمع ما بعد الصناعة. ولا أبالغ إذا ما قلت أن هذا الأندماج يعد من أهم الدوافع والأهداف الحقيقية للبريسترويكا، ومن أهم وسائل بناء النظام العالمى الجديد، الذى تعد سيناريوهاته التفصيلية على مائدة مفاوضات العملاقين الأمريكى والروسى (ولا أقول

السوفيتى). لقد سئل محامى إريك هونيكر – حاكم إلمانيا الشرقية السابق – عن حالته العقلية بعد مرضه الأخير، فقال أنه لا يستطيع تفهم الواقع المحيط به اليوم، وأردف متسائلاً عما إذا كان هنالك من يفهمه غيره. ونحن نؤكد أن هنالك من يفهمه، وهو الذى يحرص على أن يصنعه ويشكله!!

ولأننا نعتقد أن تشكيل النظام العالمى الجديد سيعتمد فى «المدى القصير» على مبدأ «السلام المرتكز على القوة»، وليس السلام المرتكز على العدل. فمن المهم أن نؤكد على الطبيعة الديناميكية الأنية لهذا النظام، لأنها تفتح الباب أمام محاولات الأنتقال إلى وضع أقرب إلى السلام المرتكز على العدل، وكذلك أمام الكيانات التى توظف طاقات التقدم فيها بكفاءة لتشغل موضعاً أفضل فى هذا النظام. وبصرف النظر عن التحليلات الساذجة، لا نظن أن كل ما يحدث هو مجرد «أمركة المستقبل العالمى» فهنالك الكثير من العناصر الموضوعية التى تنفى هذا الرأى، الذى يدعمه التأثير الضاغط للثورة العلمية والتكنولوجية الثالثة التى تتصدر الولايات المتحدة مسيرتها. إن الطاقة العلمية لكثير من الدول ستسمح لها بالمشاركة الجادة، والبعد الثقافى لها لن يجعل لحاقها بركب التقدم العلمى والتكنولوچى مبرراً لأمركتها. وإذا كانت اليابان وألمانيا من أوضح الأمثلة، فالمستقبل القريب سيقدم أمثلة أخرى، قد لا تكون كلها أوروبية أو أسيوية مستغربة. إن تفجير طاقات بعض الكيانات

الثقافية المتميزة كالصين والهند والوطن العربى وبعض دول أمريكا اللاتينية يمكن أن يثرى المستقبل البشرى كثيراً بالنسبة لصيغ التوظيف المجتمعى لمنجزات العلم والتكنولوچيا، وأن يدعم من موقع أقوى من الوضع الحالى «المكون الأخلاقى فى النظام العالمى الجديد». وهذا هو الأمل الوحيد للاقتراب من صيغة السلام المرتكز على العدل بقدر الأمكان.

وأخيراً، يزيد من ديناميكية النظام الدور المتزايد للجماهير، فالشكل النهائى للتأثير الملحوظ للعنصرين القومى والدينى سيسهم فى وضع الأتزان النسبى الذى سيصل إليه عالم اليوم. وكما أن الجماهير شاركت فى رفض شمولية وديكتاتورية النظم بشكل رئيسى حاسم، فإننى أتوقع بعد إتزان وتشبع التوجهات الفردية فى النظم الليبرالية، التى أنتجت شمولية السوق العالمية الشرسة، أن تقوم الجماهير منطلقة من نظامها القيمية والخلقية، ومن حلمها المجهض بالعدالة الاجتماعية [illegible] بمواجهة الآثار السلبية لهذه التوجهات على النظام العالمى [illegible] الشعوب الفقيرة بالذات. وستحد هذه الجماهير أيضاً من [illegible] البيئة وتلويثها، وستشجع مسيرة السلام ونزع السلاح.

• نعود الآن إلى الوطن العربى لندرس وضعه الحالى فى التصور الكوكبى للمستقبل، وآفاق الحركة المتاحة له فى الحاضر والمستقبل فى ظل المتغيرات العالمية المتسارعة.

حدث تفاؤل عام لما حدث بالكتلة الشرقية، وتصوره البعض إنهياراً نهائياً للإشتراكية، وما زال البعض الآخر يراه تصحيحاً بارعاً لمسارها، وكنموذج للرأى الآخر يقول إميل حبيبى: «أنا سعيد جداً. ويجب أن نكون كلنا سعداء، بأننا عشنا وشفنا ميلاد هذا الجديد المطهر والمنقى والأكبر من كل واحد منا وهمومه التى تبدو - فى حالة هذا الخضم الزاخر - تافهة، وأتفه منها التعليق بالماضى والنظر إلى الوراء كما يفعل السباح المتخلف الذى ينظر خلفه لعله يجد سباحاً آخر تخلف وراءه، فى هذه المباراة الكبرى عن الوصول إلى القرن الواحد والعشرين، لعله يشعر بالأطمئنان على أنه ليس وحيداً فى هذا التخلف».

وعندما ننظر للأمر بعيون عربية، فالبروبسترويكا لا يمكن أن نتغاضى على آثارها السلبية عن قضايانا الرئيسية إذا ما إكتملت كارثة تهجير مئات الآلاف من اليهود إلى الأراضى المحتلة. وإذا ما تغير الموقف المؤيد الذى يقفه (السوفييت)* بالنسبة للحق العربى فى مجال الفعل، حتى وإن ظل مقبولاً فى مجال القول، كما أننا فى ظل الواقع العربى الراهن لا نتصور قابلية البريسترويكا ورياح التغيير التى أتت بها أن تؤثر فينا بالدرجة الأيجابية التى ينتظرها البعض، بل ويكسبها لباسا إيديولجياً يتطابق مع منطلقاته الفكرية.

---

* كان هنالك ما يسمى بالسوفييت عند كتابة المقال عام ١٩٩٠، لابد وأننا ما زلنا نذكر ذلك!!!

بل ومن حقنا أن نتساءل عن شكل الاستجابة المناسبة لما يواجهنا من تحديات أى عن إمكانية إبتكار نموذج التغيير المناسب لنا، ويحضرنى هنا نموذج الانتفاضة!! فقبل أن نتكلم عن رياح التغيير علينا أن نعلم أجيالنا الجديدة ضرورة «رجم» مصداتها كالأمية والتخلف الشامل والشتت وراء قلاع القطرية، التى لا تحمى أحداً منا، ولكن تمكن أعداءنا من الانفراد بكل منا. وعلينا أيضاً أن نغضب لواقع التبعية المطلقة الذى نعيشه، ولهامشية مواقعنا السياسية والاقتصادية فى النظام العالمى، وأن ندرك أبعاد «القنابل الزمنية» التى توضع فى طريق مشروعنا القومى بإستمرار بدءاً بالصراع العربى الصهيونى، وإنتهاء بتحركات «حرب المياه»، ومروراً بتحريك الأقليات والنزعات العرقية والدينية وبإدارة صراع الخليج. والمسألة ليست إحتماء ساذجاً بالتفسير التآمرى للتاريخ كما يظن البعض، لأن أغلب حلقات هذا المسلسل كانت مندرجة تحت نطاق «اللعب على المكشوف» الذى يمارسه الطرف الأقوى للتحكم فى التابع الضعيف.

يمكننا أن نستنتج أن هنالك إتجاهاً عاماً لتهميش مشاكل الأمم المتعثرة، بدافع الأنشغال فى تحديد الملامح الرئيسية للنظام العالمى الجديد، مع النية لفرض حلول تتوافق مع رغبات الكبار بالنسبة لحل المشكلات الإقليمية. وكما أن البعض – ولست منهم – ينادى ليل نهار ببيع القطاع العام ما دام متعثراً، فبنفس المنطلق تقريباً ينادون «ببيع

المشروع القومى» للأمم المتعثرة بالأسراع بالأندماج الهامشى فى السوق العالمية. إن هذا الإتجاه من إتجاهات التغيير هو الذى يجب أن تضع أمامه المصدات لنتلافاه ونكسر حدته بدلاً من وضعها أمام التوسع فى الديمقراطية والمشاركة الشعبية ومحاولات التقدم نحو ترسيخ المضامين العلمية الموضوعية للوحدة العربية، التى يمكن أن تشكل علماً شاملاً (وحدلوچيا!!) يشمل دراساتها البشرية والاقتصادية والسياسية والمستقبلية ... إلخ.

إن الوطن العربى بإمكاناته وطاقاته حالة خاصة لا تستحق التهميش، وعلى أبنائه أن يسارعوا بإستخلاص عناصر التقدم والمستقبلية فى «تراثه الحى» المتمثل فى ثقافته العربية والإسلامية، وأن يتجاوزوا خلافاتهم الداخلية ومشاكلهم الواقعية والمصطنعة مع دول الجوار بحلول عملية جذرية، وأن يصلحوا مفاتيح التغيير والتقدم المجتمعى التى علاها الصدأ والتى لن يخلصها من هذا الصدأ إلا ثورة الثنائيات الثلاث: التربية والتعليم – العلم والتكنولوچيا – الثقافة والإعلام وأخيراً عليهم إثراء مفهوم الأمن القومى فى ظل موقف بعيد النظر من الصراع العربى الصهيونى، وصيغة حضارية لعلاقاتهم مع مختلف دوائر الأنتماء الأصغر (القطرية) والأكبر (الإسلامية والأفريقية والأسيوية والعالم الثالثية) إنتهاء بالدائرة الإنسانية الأعم والأشمل. إن هذه المهام مجتمعة يجب أن تكون على أجندة العرب فى التسعينات.

وهذا الأمر لا يدعو إلى الإنزعاج ولكن يدعو إلى التنسيق والتخطيط والتعاون بعزم وإخلاص. وهو موقف تشاركنا فيه دول أكثر تقدماً، كدول أوروبا الشرقية، إلا إذا صدقنا «المعالجات التهريجية» التى تؤكد أن شعوبها لا تعرف شكل البرتقال!!! إن من يسارع بوضع إستراتيجية ومشروع قومى للمستقبل، مع ضبط إيقاعهما مع التوجهات العالمية العظمى للتغيير، بصورة تجعله يستفيد من الخط العام (الديمقراطية - الحرية - السلام - التقدم العلمى والتكنولوجى .. الخ) دون أن يفقد الخاص (الهوية الثقافية والأمن القومى) يمكن أن يشارك، دون مبالغة، فى صياغة المشروع الحضارى لمستقبل البشرية فى الألفية الميلادية الثالثة - ألفية إبن آدم، التى تزايدت فيها قدراته، وتعاظمت مسئولياته عن قرارته. إنها مهمة صعبة، لكنها تستحق كل جهد يبذل فى سبيلها. ويلزم إنجازها عربياً تحرير عقولنا وإطلاق الفكر الأبداعى المكبل بكثير من القوالب المعوقة، وإثراء مراكز رسم الاستراتيجيات وصنع القرارات بالعناصر الشابة المتميزة. إننى أتخيل المشروع القومى المأمول وقد جمع فى صيغة متوازنة بين الاعتماد المتبادل وفك الارتباط، بيننا وبين الكتل الأخرى التى تميز عالم الغد. إن هذه الصيغة يجب أن تتضمن إستراتيجية ناضجة للتنمية الشاملة، وعلينا أن نفتح باب الحوار واسعاً للتوصل لملامحها الرئيسية، بل ولمناقشة الخطط المرحلية والسياسات التنفيذية، التى يمكن أن تحقق أهدافها.

٣ - الآخرون هم الواقع!!!

في مرحلة المراهقة الفكرية للجيل الذى أنتمى إليه، كانت مساحة الأفكار الوجودية ومن يروجون لها كبيرة إلى حد ملحوظ، وظهر من بين هذه الأفكار مقولة «الآخرون هم الجحيم». طافت بذهنى هذه المقولة أكثر من مرة خلال الآونة الأخيرة، التى تتشكل فيها صورة جديدة لمستقبل البشرية، يمكن - بل ونرجو لها - إن تقوم على أساس التواجد المشترك Co-existence والاعتماد المتبادل «Interdependence» هذان المبدآن يعملان على تقليل الحساسية والاحتكاك بين مختلف الثقافات والتوجهات الخاصة بالشعوب والجماعات المختلفة فى «الأسرة البشرية» إلى أدنى حد ممكن، ولا نقول إلغاءها، فهذه طوباوية فجة. والفرق بعيد بين المنطلق الفردى فى المقولة الفلسفية الوجودية، التى تبدأ فكرة «الآخر» عندها من نظرة الفرد إلى بقية أفراد «الأسرة النووية» الصغيرة، وبين النظرة الكوكبية للآخر، التى تحاول صياغة العلاقات بين شعوب وجماعات الأسرة البشرية، بحيث لا يكون «الآخرون هم الجحيم» لتظهر مقولة «الآخرون هم الواقع» بكل ماله

وما عليه، والذى يجب أن نعمل جميعاً على التكيف المشرف معه، وعلى أن يكون مقبولاً، بل ومحبوباً بقدر الإمكان.

* والحقيقة، فإن مقولة «الآخرون هم الواقع»، هى المقولة الوحيدة التى تعفى من يتبناها من ارتكاب الأخطاء الفادحة فى الحساب، التى تنجم عن العزلة والتمترس وراء حصن وهمى تشكله مجموعة من الأفكار الخاطئة عن الذات والآخر، بصورة لا يمكن معها إدراك التوجهات الكبرى فى مسيرة «تاريخ المستقبل». والمشاركة فى إبراز ملامح صورته المأمولة، وهى المشاركة التى ستحدد فى نفس الوقت مكانة كل شعب فى هذه الصورة، وهل سيكون ضمن مناطقها المضيئة أم المظلمة؟ أم سيكون - والعياذ بالله - خارج إطارها تماماً، بحيث لا يكون له مكان فى تاريخ المستقبل؟! إن هذا الاحتمال قائم تماماً، بل لقد ظهرت بداياته بشدة، ومن لا يصدق، دعوه يبحث عن الأشكال القديمة للأحزاب الشيوعية، وعن الأطروحات الساذجة لبعض التيارات السياسية العربية، ويحدثنا عن مستقبل هذه أو تلك. وإن لم يجد شيئاً ذا بال، فليرجع معنا إلى الحديث عن الحسابات الخاطئة.

* وكما ذكرنا، فأن أخطر أخطاء الحساب تتعلق بالآخر، تعريفه - مدى احترام إرادته - وتقويم قدرته، وهنا قد يكون الخلل قطرياً أو قومياً أو دولياً، فمحاولة حزب من الأحزاب، أو جماعة من الجماعات العرقية أو الدينية، الهيمنة الكاملة على مقدرات قطر من الأقطار، مع

الاستهانة الكاملة بحق الآخرين وقدرتهم على الدفاع عن هذا الحق، خطأ شائع فى العديد من الأقطار، دفع ثمنه وسوف يستمر فى دفع ثمنه من يرتكبونه، وعلى قمتهم الأحزاب الشيوعية الأصولية فى دول أوروبا الشرقية، والجماعات المتعصبة عرقياً أو دينياً أو سياسياً فى الشرق والغرب، ويتساوى فى الخطأ - وهذا هو المثير - كون هذه الجماعات أغلبية أو أقلية، لأن عدم الاستقرار يطول الجميع بسبب الخطأ البشع فى تقدير أهمية التواجد المشترك والأعتماد المتبادل، اللذين نرجوهما للبشرية كلها، وبالتالى يجب توفرهما من باب أولى داخل كل قطر من الأقطار.

* وللأسف تأتى أشهر أمثلة الأخطاء القومية، دون تهويل أو مبالغات إنشائية، من المنطقة العربية إن النموذج «الكويتى - العراقى»، الذى أهدرت فيه كل الحسابات المنطقية لتعريف «الشقيق» ولإحترام إرادته وقدرته على المستويين العربى والدولى، قد قدم مثالاً مأساوياً لما يمكن أن تؤدى إليه أخطاء الحساب من آثار سلبية على المدى القريب أو البعيد ولابد من جهد مخلص جبار لتقليل هذه الآثار، وللخروج من هذا المأزق بآليات عربية تتواكب - بل وأتمنى أن تسبق - الآليات الدولية، أننا نمر بمرحلة «الأفاقة»، والأمل كبير أن تسترد الأمة عافيتها القومية، على أساس صحيح من العلاقات العقلانية الراسخة، التى تدرك البعد المستقبلى الهام لوضع كل الضمانات «العربية قبل الدولية» لعدم تكرار

الأخطاء القومية البشعة، لأن العروبة فى عالم المستقبل لن تكون «قدرا» فقط، لكنها - لكى تبقى قوية وسليمة - يجب أن تظل «اختيارا». وهذه قصة أخرى، و قد نعود إليها بتفصيل أكبر فى مقال قادم بإذن الله*

إذا انتقلنا إلى أخطاء الحساب الدولية نجدها كثيرة ومتشعبة، وأن كان أشهرها فى عالم اليوم «الأخطاء البنيوية» فيما كان يسمى بالكتلة الشرقية، لكن هذا ليس هو المثال الوحيد، بل وليس هو المثال الأبشع فالمرشح الآن للحصول على «كأس البشاعة» هو خطأ الشمال فى علاقته بالجنوب، وفى تعنته بالنسبة لإستفادة الجنوب، الذى تعانى شعوبه من آثار المرحلة الاستعمارية، من منجزات الثورة العلمية والتكنولوجية، وفى فرضه نموذجه الثقافى، بالإضافة إلى السياسى والاقتصادى، على الآخرين، أن النظرة الضيقة تتصور إمكانية إستمرار ذلك، بسبب قوة الشمال المفرطة، لكنها نظرة قاصرة، ذات كلفة بشرية باهظة. أن صورة المستقبل البشرى تحتاج للكثير من خبرات الأغلبية الجنوبية، رغم تخلفها المادى، بالأضافة إلى ما تستطيع أن تقدمه الأقلية الشمالية المزهوة بإنجازاتها. ورغم أحقيتها فى هذا الزهو، يجب أن تسأل نفسها: إلى أى حد أعتمد تقدمها على العطاء التاريخى للجنوب؟ وما مغزى ذلك فى تشكيل صورة المستقبل، وفى ضرورة المشاركة الجنوبية فيه؟ إن فى الغرب من المنصفين من لا يعزو كل تقدم إلى «أثينا البيضاء»، لكنه

* أنظر مقال «التسعينات إختيار»

يتحدث عن فجر التقدم فيما يسمى «بأثينا السوداء»، وهذا هو اسم كتاب شهير يتحدث عن دور الجنوب، بصورة لا يصل إليها بعض «المستغربين» من أبنائه، وبشكل يذكرنى بما يرويه أحد الظرفاء عن إنبهار مثقفينا بالفلسفة اليونانية وتغلل البقال اليونانى (الجريكى) كما يسمى فى الشارع والريف المصرى منذ عدة عقود، حيث كان يقدم الخمر والقروض الربوية بجانب البقالة، إذ يقول ضاحكاً «كانت الصفوة من أتباع أرسطو، والبقية من محاسيب خريستو» بإعتبار خريستو من الأسماء المشهورة «للخواجة» اليونانى فى مصر!!! ونحن لا ننكر عظمة الفلسفة اليونانية بالطبع، ولكن من أخطاء الحساب المرفوضة، أن ننكر ما يمكن أن تقدمة ثقافة الجنوب، وبالذات الثقافة العربية الإسلامية، فى تشكيل صورة المستقبل البشرى، ولأن هذه الثقافة العزيزة تقول لنا: «أبدأ بنفسك أولاً» فلنتبع نصيحتها قطرياً وقومياً ولنستلهم حكمتها فى تعاملنا مع «الآخر» بكل درجاته.

٤- عروبة المستقبل

إلى متى تستغرقنا أشكاليات الثبات والتغير؟ وإلى متى نربط الثبات بالصواب، بصرف النظر عن كنهه، ونربط التغير بالخطأ؟ بصرف النظر عن ضرورته؟ وهل يحسب هذا الموقف المتجمد على ثقافتنا العربية الإسلامية رغم أن فجر الإسلام وضحاه شهدا أكبر قدرة على «جهاد الاجتهاد»، كما أفضل أن اسميه لقد كان التدهور صنوا للجمود، فلماذا نتمسك به؟ ولكن، هل تكون المطالبة بالتغير والتطور صنوا للجحود؟ بالطبع لا، فنحن لا نريد الجمود أو الجحود، وإنما نريد أن نضع أيدينا على الصيغة الصحيحة للثبات والتغير، بما يمكننا من «التكيف المشرف» مع عالم اليوم الهادر بأسرع معدلات التغير التى شهدتها البشرية، ونكرر دائما أننا نريد القيام بذلك دون نوبان أو عزلة، ولأن قائمة أشكاليات الثبات والتغير طويلة، أفضل اليوم أن نتناول باختصار أشكالية مطروحة بشدة فى هذه الأونة، وأعنى بها «صورة العروبة» المتوقعة فى المستقبل، وهى الصورة التى أتمنى إلا تكون مهزوزة!!!

• وقبل أن يمارس العقل العربى الأبداع المطلوب للتوصل إلى صورة دقيقة غير مهزوزة عن «عروبة المستقبل»، يجب أن يحلل أسباب اهتزاز الصورة الحالية، رغم محاولة الاتجاهات والحركات القومية أن تضعها فى أبهى إطار، أظن أن هذا الاهتزاز يمكن أن يرجع إلى «آليات التجنيس القهرية»، التى دفعت العروبيين دفعاً إلى تبنى هذه الصورة، ويمكن فى هذا المقام أن نذكر آليتين هائلتين، الأولى تتعلق بالحكم العثمانى، والثانية تتعلق بالمرحلة الاستعمارية التى أعقبته، لقد قدم الحكم العثمانى نفسه بإعتباره الإمتداد الطبيعى لمبدأ الخلافة الإسلامية، وكان هنالك من يرى فى رفض اخطائه خروجاً عن الإسلام، وكان رد فعل العروبيين هو تقديم صورة أكثر تجانساً من الواقع عن الكتلة العربية، باعتبارها كتلة ذات خصوصية ثقافية بل (عرقية أحياناً) تعطيها حق التميز. واستخدمت أدوات كثيرة فى الجدال، من بينها دفع تهمة عدم الإلتزام الدينى بأنهم الناطقون بلغة القرآن والمحافظون عليها، ومن بينها أيضاً أن الإنتماء العربى فى هذه الكتلة يتسع بشكل أنسب للأقليات غير المسلمة، التى ظهر من بينها عروبيون متشددون، ومع حسن نية الكثرة الغالبة من دعاة العروبة، إلا أن الصورة التى قدموها لم تتسع لتوضيح حقيقة أن الثقافة العربية تتضمن «تحت ثقافات» عديدة لمجتمعات متباينة الظروف، رغم قناعتنا الكاملة لإمتلاكها المقومات التاريخية والجغرافية والمستقبلية لمفهوم الأمة، لقد أدى «التجنيس القهرى» الناجم عن فشل الحكم العثمانى، إلى التغاضى - عمداً وعن

obeikandi.com

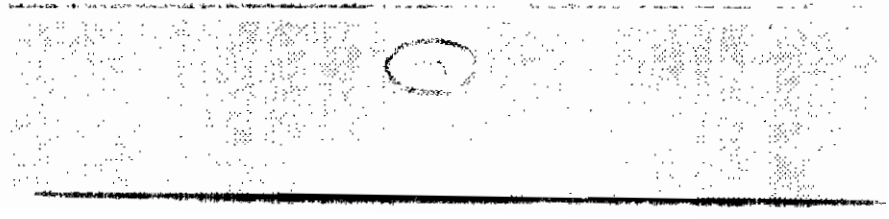

غير عمد – عن كثير من الملامح والتفاصيل فى الصورة المشتركة للمجتمعات المكونة للكتلة العربية، مما جعل هذه الصورة العزيزة مهزوزة ... مهزوزة!!!

• هذا عن الحكم العثمانى فماذا عن آلية التجنيس القهرى الثانية، أو الاستعمارى؟ لقد عانت المنطقة العربية من كل أشكاله العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية، ومازالت. وخضعت بعض بلدانها وشعوبها لمحاولات التغريب الكامل، حتى أن استعادة التعريب احتاجت جهداً مشكوراً. ونظراً لتأثير أشكال الاستعمار المذكورة، مجتمعة أو منفصلة، عمد الاتجاه العروبى مرة أخرى إلى التجنيس القهرى، وأفرزت حركات التحرر الوطنى تصورات عن التنمية المستقلة، تشبه نظرية الأوانى المستطرقة، ساعدها المد القومى فى أهمال الخصوصيات، وما أن تجاوز «المشروع القومى» هذه اليوتوبيا، وفكر فى صيغ أكثر نضجاً للتكامل ووحدة الصف والهدف، بعد حقبة من الاستقطاب شرقاً أو غرباً، ومن محاولات التقسيم الأيديولوچية، حتى داهمتنا متغيرات مابعد الحرب الباردة بين الكتلتين الغربية والشرقية، الآخذتين رغم كل التناقضات فى التوحد التدريجى على شكل قطب شمالى متقدم تقوده الولايات المتحدة، وتنظم إليه من الشرق الجغرافى اليابان وغيرها من الدول متسارعة النمو الاقتصادى، ما مصير «صورة المستقبل العربى» فى هذه المرحلة؟ هذا ما سنحاول تشوفه فى السطور التالية.

• لقد أدى انتهاء التجمد والاستقطاب مع غياب الحرب الباردة إلى سيولة حادة فى المنطقة العربية، حاول البعض انتهازها فى إعادة التشكيل طبقاً لمصالحه الضيقة، مستخدما - وياللعجب - الورقتين القومية والإسلامية معاً. لكن معطيات النظام الكوكبى الجديد بكل ماله وما عليه من ناحية، والحس السليم لقطاعات غالبة من الجماهير العربية وحكوماتها من ناحية أخرى، نجحا فى التصدى لهذه الحسابات الخاطئة وأحبطاها. لكن - والحق يقال - مازالت السيولة على أشدها، ولابد من تشجيع عوامل «اللزوجة» فى المنطقة، ليمكن تشكيل النظام العربى الجديد، طبقاً لما ننادى به من تكيف مشرف مع النظام الكوكبى الصاعد. ومن أهم عوامل اللزوجة تلافى التجنيس القهرى، باحترام ما ينادى به القوميون المتنورون من الوصول إلى صيغة الوحدة فى إطار التنوع، ومن فك الاشتباك المفتعل والمغرض بين العروبة والإسلام، ومن تسامح ثقافى يحل مشاكل الإنتماء العربى مع الأقليات العرقية والدينية داخل المنطقة، ومع الكيانات المحيطة. بالإضافة إلى ذلك، لابد من الانتباه إلى ضرورة الاتفاق الفعال على موقف موحد بالنسبة لهذه المرحلة الحاسمة التى تدخلها القضية الفلسطينية، والاستعداد لحل مشكلاتها الحاضرة والمستقبلة، بشكل لا تتناقض فيه الواقعية مع الإلتزام. وأخيراً، يجب الاستفادة من دروس الغير، وبالذات من درس البيت الأوروبى، لإعطاء الإهتمام الكافى «للأمن التنموى» لكل شعوب

المنطقة، وهو الأمن الذى طالما أهدرت إمكاناته فى معارك عبثية بين أصحاب نظريتى «الأوانى المستطرقة» المغرقة فى يوتوبيا التجنيس الكامل، و «القماقم المغلقة» المغرقة فى العزلة القطرية غير الواقعية، فى عالم التكتلات الكبيرة والاعتماد المتبادل. بهذا يمكن أن يصل العرب إلى صورة دقيقة غير مهزوزة للمستقبل، يمكن أن يتعرف فيها كل منهم على ملامحه بوضوح، دون أن ينسى - ولو للحظة - أهمية وحتمية وجوده بين أشقائه، وأن لم نمارس «جهاد الاجتهاد» اللازم للوصول إلى هذه الصورة، فلا يجب أن نلوم إلا أنفسنا.

obeikandl.com

٥ - موسم الهجرة إلى الجنوب !!!

أن نفكر فى المستقبل، وفى ضرورة مواجهته بما يلزمه من إبداع وإبتكاريه، حتى نتمكن من التغلب على تخلفنا المادى، وحتى نشارك بفعالية أكبر فى صياغة مستقبل البشرية، كجزء فاعل منها، أقول ما أن نفكر فى ذلك حتى نتجه فوراً إلى الشمال أو إلى الماضى. والسؤال الذي يطرح نفسه بشدة، حيال هذا الموقف، يتكون من شقين: هل هذا هو التصرف السليم؟ وهل يكون البديل «دعوة مراهقة» للإنفصال عن الشمال أو عن الماضى؟ والإجابة القاطعة على الشقين هى النفى بالطبع. لكن هذه الإجابة تقودنا إلى سؤال آخر عن كيفية إتخاذ الموقف السليم من الإبداع المستقبلى، دون الإكتفاء بإبداع «الآخر» المكانى «الشمالى» والزمانى «الماضوى»، وعن المجالات المطلوبة الإهتمام بإثرائها بفكرنا الإبداعى، ومفاتيح ممارسته حضارياً فى عالم اليوم بكل ظروفة الحاكمة، الملائم منها وغير الملائم. دعونا نحاول الإجابة على هذا «السؤال المركب» فى السطور التالية:

• إذا كنا نتحدث عن صورة المستقبل، بإعتبارها ستتوقف على الخيارات الإبداعية لإنسان اليوم، وإذا كان هنالك إتفاق عام على أن المستقبل للمبدعين، فهل سيكون لغير المبدعين موقع فى هذه الصورة؟ قطعاً لا!!! إن المستقبل يحمل بكل تأكيد إمكانيات التهميش، والأنزواء فى ظلال التاريخ، لغير المبدعين، الذين لا يبذلون الجهد الكافى فى سبيل «التكيف المشرف» مع المبدعين الآخرين، المشاركين فى صياغة صورته. وأخطر ما يواجهنا، أن نتصور إمكانية المشاركة بالنقل. هذا ليس «إبداعاً» لكنه «إتباع»، يصح بل ويجب وجوباً مطلقاً فى شئون الدين من عبادات، ومعاملات، مادام الأمر يتعلق بنص إلهى مقدس أو حديث شريف صحيح، أو غير ذلك من وسائل التوصل إلى القواعد الشرعية. ولكن ديننا الحنيف وسلفنا الصالح يهيبان بنا مع البعد عن «الإبتداع» فى شئون العقيدة، أن نبدع فى كل الشئون الأخرى. لقد أبدعت الثقافة الإسلامية «بديناميكيتها الفطرية»، بشكل جعلنا نسمع «الآذان فى مالطة»، وفى كل بقاع الأرض، فلماذا نحاول اليوم أن «نبدع» فى تكريس النقل، وإهدار العقل؟ ولماذا ننقسم حيال هذا النقل إلى قسمين: قسم ينقل عن الماضى الذى تغير منذ زمن بعيد، وقسم ينقل عن الشمال الذى يتغير حاضره بإستمرار، ويصير ماضياً؟ هل كتب علينا أن نتعامل بإستمرار مع كل أشكال الماضى، الذى تختلف ظروفه الزمانية والمكانية عنا؟ وأى مشاركة مستقبلية يمكن أن نرجوها من وراء إتباع هذا المنهج؟

إن الحل الأمثل هو الإلتزام بالإبداع الكلى، الذى لا ينفصل عن جذوره الماضية، ففى هذا موته الحضارى المؤكد، حتى وإن ظن أنه يستطيع «الفناء المستحيل» فى الآخر مهما كان متقدماً، وكذلك لا يلح على نقل تفاصيل الواقع المختلف عند هذا الآخر بماديته المفرطة ومشاكله الخاصة، لأنها لا تصلح صورة لمستقبلنا رغم أنها ستصير بسرعة ماضياً لصاحبها. عليه أن يشارك فى «مباراة التجاوز»، التى يستعين فيها بكل ما يفيد من ماضيه الخاص - وما أكثره - ومن حاضر الآخر وإجتهاداته المستقبلية وما أكثرها أيضاً، ويبنى على ذلك كله «إجتهادات» إبداعه الخاص عن صورته الخاصة، فى إطار صورة المستقبل المرجوة للبشرية جمعاء. هكذا يمكن أن يضع بصمته، وأن تحتوى هذه الصورة على ملامحه بجوار ملامح الآخرين، وهكذا يؤكد وجوده الحضارى دون نوبان أو عزلة. وهذا جماع ما أسميه «بالتكيف المشرف».

• وإذا كان الفكر الأبداعى يستهدف تجاوز الواقع، وصولاً إلى الصورة المرجوة للمستقبل، فلابد أن هنالك مجالات لممارسة هذا الفكر يؤدى النجاح فى «ثورتها الإبداعية» إلى الهدف المنشود. هذه المجالات، التى تؤدى ممارسة «الإبداع المتناسق فيها إلى «حراك مجتمعى» شامل نحو المستقبل، يمكن أن توجز فى ثنائيات أربعة: التربية والتعليم - الثقافة والإعلام - العلم والتكنولوچيا - السياسية والإقتصاد. هل نسيت شيئاً؟ لا أظن، وإن كان هذا التساؤل عن إحتمالات النسيان قد دفعنى

إليه أحد الأصدقاء عندما كنت أحدثه عن هذه الثنائيات الأربعة، حيث ذكرني قائلا: أين الدين والفن مثلاً؟ فأجبته بأن الدين عماد التربية، والفن جزء عضوى فى منظومة الثقافة. المهم أن نذكر أن مساحة التحرك الإبداعى فى هذه المجالات كبيرة جداً، ولنجعل تقليل التصادم بيننا وبين غيرنا أحد أهداف هذا التحرك!!! لقد إحتفيت كثيراً بدراسة صدرت أخيراً عن مركز الدراسات التربوية بمصر، عن الإبداع والتعليم العام، ورغم أنها تزكز بشكل شبه كامل على «الهجرة إلى الشمال» فى معالجة الفكر الإبداعى فى التعليم، إلا أنها حوت بدايات جيدة للإجتهادات الخاصة بنا، وكذلك بعض الدراسات الميدانية الوليدة، بجانب الفائدة التى لا تنكر من تعريفنا بالمفهوم الغربى للإبداع البشرى عموماً، وفى مجال التربية والتعليم بالذات. وإن كنت أرجو أن يزداد الإهتمام بحذور وبذور الإبداع فى حضارتنا العربية الإسلامية، كنقطة الإنطلاق الصحيحة لممارستنا لهذا الإبداع. ولأهمية هذا العمل قد يستحق أن نولى تطويره عناية خاصة، وإن كانت أرجو فى ختام المقال الحالى أن أشير بكلمات قليلة إلى مفاتيح ممارسة الإبداع فى ظل الظروف الحاكمة فى عالمنا، وفى ظل هدف «التكيف المشرف»، الذى كررته أكثر من مرة.

• بإيجاد شديد يجب أن تحكم إجتهاداتنا قناعة كافية بأننا نعيش فى مرحلة الكوكبية Globalism، التى تتسم بضرورة قناعة المشاركين فى مباراة تجاوز الحاضر ورسم صورة المستقبل بعدة مبادىء» أهمها

الإعتماد المتبادل والمسؤولية المشتركة، بالأضافة إلى التخلى المطلق عن «الغلو» الإيديولوچى والتسامح الثقافى، فى ظل الإيمان بوحدة الحضارة البشرية مع الإختلاف الحتمى لثقافات أبنائها. هذا الإختلاف، إذا حرصنا على ألا يتحول إلى خلاف وتنازع، يمكن أن يثرى الوحدة الحضارية ويمدها بفيض من إمكانيات التصدى لمشاكل التطور الحضارى المتزايدة والمتجددة. ورغم كراهيتى «للنهايات الخطابية» للمقالات، إلا أننى أدعو الله مخلصاً أن نستطيع النجاح فى «التحدى الإبداعى» المطلوب بسرعة وإلحاح .

٦ - التسعينـــات .. اختيـــار

في أول إعدادها فى بدء عام ١٩٩٢، قدمت مجلة «تايم» تيد تيرنر، صاحب «سى . إن . إن» بإعتباره رجل العام ورغم الكثير والمثير مما ذكرته المجلة عن قصة نجاحه الباهر وبنيانه الباطنى المحير، وعن إعجاز محطته الشهيرة فى عرض «التاريخ» في لحظة حدوثه «أو استحداثه فى بعض الأحيان»، فقد شد انتباهى عبارة وضعها فى أكثر من مكان على مكتبه!!! هذه العبارة تقول: «إما أن تقود، أو تقاد، أو تتنحى عن الطريق». فهل هذه هى الخيارات الوحيدة المطروحة فى هذه المرحلة؟.. وبمعنى آخر، هل «الحلم الأمريكى» الفردى الذى حققه تيرنر، هو نفسه الحلم الأمريكى الكوكبى، الذى يعتقد البعض أن أمريكا قد حققته، تاركة للآخرين التبعية أو الهامشية؟.. وإذا كنا نرفض الاقتناع بإستمرارية اللحظة احادية القطبية، ولا نرى أن الخيارين الوحيدين أمام الآخرين هما التبعية والتهميش، فما هو البديل المطروح؟

أن حدوث ما وصف «بالهزيمة بلا حرب» للكتلة الشرقية وقائدها المنتحر، يجعل الحلم الأمريكى الخاص «بمكسكة العالم» يراود البعض

«وأعتذر عن غرابة الكلمة، فهى مشتقة من المكسيك، هذا الجار المسكين الذى يزداد ضعفاً وهامشية، دون أن يكون ذلك أمراً محتوماً». وإذا كان التهميش ليس سهلاً، فلا بأس من «البديل الكندى»، حيث بدأ أبناء هذا البلد الجميل يشعرون بمخاطر سيناريو التبعية المتزايدة، الذى يتضمنه مشروع الأمريكتين. ولكن، هل يمكن التفكير فى تعميم البديل الكندى على الكتلتين الكبيرتين المنافستين لأمريكا وأعنى بهما الكتلة الأوروبية، والكتلة اليابانية - الأسيوية وهل يمكن استمرار - ولا أقول تعميم - البديل المكسيكى، المتحقق فعلاً بالنسبة للعالم الثالث؟.. مرة أخرى، نواجه نفس التساؤلات بتحديد أكبر، والأجابة عند رجل العام!!! فالنجاح الظاهرى الباهر يجب إلا ينسينا البنيان الباطنى المحير. أن أمريكا - هذه البوتقة التى تضم أبناء كل ثقافات الأرض - يشعر الكثير من عقلائها، بأنها تواجه فى مطلع التسعينات ما تواجهه البشرية كلها: أزمة النموذج. أن الحلم الأمريكى قد صار أيلاً للسقوط، بعد سقوط التحديات التى عمقته، والمطلوب من كل البشر، مع اختلاف المواقع والظروف، تجديد أحلامهم، بما يتناسب مع المتغيرات الجديدة. وما أكثر الفرص والمحاذير فى هذه المرحلة!!!

أن استقراء الأحداث يؤكد أن عقد التسعينات شعاره «الاختيار» بل أن الكثير من الشعوب تعيش «مخاض الاختيار»، ويخشى على ضعاف البنية من تعرضهم «لإجهاض الاختيار»!!! ولعل مساحة الاختيار الكبيرة

تفسر السيولة الملحوظة، لأن الاختيار يعنى اهتزاز الثوابت، التى قد يتم استبقاء بعضها، والاستغناء عن البعض الآخر. وقد يمكننا ذلك أيضاً أن نفهم «لوغاريتمات» التكتل والتفتيت، الذى يجرى أمام أعيننا فى نفس الوقت، ويجعلنا نتعجب من «الاختيار المرحلى» الخاطىء، الذى يمارسه الضعفاء فيزدادون ضعفاً بتفتت كياناتهم، ونعجب بالاختيار المستقبلى الصائب، الذى تمارسه كيانات أقوى بتكتلها فتزداد قوة. لكننا نأمل أن تتحسن آليات الاختيار بسرعة، وأن يفهم الجميع أن المرحلة الكوكبية تستلزم خيارات وأحلاماً كوكبية، تمتلك بعض العناصر المشتركة، التى تتمشى مع «المستقبل المشترك» دون أن ينفى ذلك تضمنها كل ما يلزمها من خصوصيات يفرضها الواقع المختلف. أن خيارات وأحلاماً كهذه، ستمكن البشرية فى الألفية القادمة من أن «تستحدث» تاريخها بصورة يقبلها الجميع، بحيث لو شاهدناها عن طريق «سى . إن . إن» لا نفكر لحظة واحدة فى «نظرية المؤامرة» أو «نظرية الغفلة»، أو هما معا!!!.

والسيولة الحالية قد جعلت العروبة نفسها موضع اختيار، وأن لم نتمسك بها فستذوب بصورة أو بأخرى فى الصيغة الشرق أوسطية، وسيكون دور الغفلة فى ذلك أكبر بكثير من دور المؤامرة. ولكن على من يريدون الحفاظ على العروبة، بل وعلى الثقافة العربية الإسلامية نفسها، أن يعملوا من جديد على صياغة حلم عربى - كوكبى، يستجيب بعقلانية وانفتاح للمتغيرات الفاعلة فى عالم اليوم والغد. قد تكون هذه مهمة

صعبة، يعيقها الكثير من التشوهات والشروخ التى حدثت واستحدثت فى الفترة الأخيرة، لكننا فى وقت يجب أن نفرق فيه بين الصعب والمستحيل، وإلا فعلينا أن نتنحى عن الطريق!!!

obeikandl.com